شيء للوطن

عهد «خبرة الملوك»

عبدالرحمن بن عبدالعزيز آل الشيخ

■ بكل هدوء وبكل رضاء محلي تجاوز إلى رضاء عالمي جاء إنتقال الحكم في هذه البلاد وبصورة لا يدركها إلا مواطنو هذه البلاد الذين هم أقرب إلى حقيقة أسس هذا النجاح الذي تحقق في إنتقال السلطة من ملك إلى ملك.

هذه الخصوصية التي تتميز بها هذه البلاد وشعبها والتي من ثمرتها التوافق التام بين القيادة والشعب في كل شئون العمل وإدارته.. وهي خصوصية قل أن توجد لها مثيل في أي دولة أو في أي مجتمع آخر.. لذلك كان النجاح التام والمتوقع والطبيعي في انتقال السلطة مثار إعجاب وارتياح كل السياسات العالمية فهو صورة حية من صور النهج الإسلامي الذي كان أبلغ وأعظم من كل الصور الأخرى.

وبانتقال قيادة الحكم في المملكة إلى خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز ومن ثم اختياره حفظه الله لصاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز ولياً للعهد في ظرف دقائق معدودة فان المملكة من خلال هذه الخطوة الفريدة تثبت للعالم كافة قدرتها المعتادة في تحقيق نجاح اختيار إدارتها وبصورة مثالية خاصة في ظل الظروف الحالية والمستقبلية التي تتطلب استراتيجية أداء مختلفة كلياً وبما يتوافق مع متطلبات العصر القادم.

وخادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز حفظه الله ملك اكتسبت شخصيته مواصفات مختلفة من كل ملوك هذه البلاد السابقين، فهو ملك جمع الكثير من صفات الملوك السابقين فأخذ من والده المؤسس ومن الملك سعود ومن الملك فيصل ومن الملك خالد ومن الملك فهد رحمهم الله جميعاً أخذ منهم خصال متعددة في شتى الأمور تكونت من خلالها منها بالتالي شخصية هذا الملك الذي عهدت إليه الأسرة والشعب قيادة البلاد.

لذلك فان من الطبيعي أن ملك أتيحت له فرصة العمل عن قرب مع خمسة ملوك تولوا إدارة حكم هذه البلاد في أحلك وأصعب الظروف المالية والسياسية والعسكرية والأمنية وعبر سنوات طويلة فإن هذه الخصوصية من المؤكد أنها ستكون عاملاً إيجابياً كبيراً في تكوين فكر ورأي وقرار الملك عبدالله في شتى المجالات وعلى قدر كبير من التميز والحكمة السياسية والإدارية وهذا هو المتوقع إن شاء الله بما يعود إلى صالح هذا الوطن الغالي.

أما خليفة خادم الحرمين وولي عهده صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز فان سموه يملك ثروة كبيرة من الخبرة الإدارية فسموه هو الشخصية الوحيدة من الوزراء الذين تشرفوا بالعمل في المسئوليات الإدارية في هذه البلاد فسموه الآن يعد الوزير الوحيد الذي تشرف بالعمل منذ أول تشكيل وزاري في هذه البلاد في عهد المغفور له الملك عبدالعزيز، وذلك قبل أكثر من ثلاثة وخمسين عاماً عندما تم تشكيل أول مجلس وزراء برئاسة ولي العهد حينها الملك سعود بن عبد العزيز رحمه الله.. ومنذ ذلك التاريخ وحتى يومنا هذا وعبر هذه السنين الطويلة فقد اكتنز سمو الأمير خبرة ومعرفة بإدارة العمل في كثير من المجالات خاصة السياسية والعسكرية والإدارية والاجتماعية.. وغيرها.. وامتلك سموه ثروة خبرة لا يوجد لها مثيل في أي شخصية على المستوى العالمي.

هنا يكون بتوفيق من الله قد تحقق لهذه البلاد التكامل لقيادة هذه البلاد بين شخصية خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز وسمو ولي عهده الأمين الأمير سلطان بن عبدالعزيز حفظهما الله وهو تكامل وتوافق بما يملكانه من خبرة عصور ملكية عدة كانت حافلة بكل التجارب والدروس والعبر والصفات وهي خبرة سينعكس أثرها إن شاء الله بإيجابية كبيرة على هذا الوطن في شتى المجالات وستواصل هذه البلاد مسيرتها التنموية ودورها القيادي العالمي كما كانت إن شاء الله.

alshaikh@alriyadh.com

على قامة الريح

مظلّة البنوك بين الصّحو والمطر!!

فهد محمد السلمان

■ لستُ من روّاد البنوك، وعلاقتي بها لا تتجاوز حدّ ما تستدعيه فواتير الخدمات، وهذا الكلام ليس لمجرد البراءة من تهمة الغنى.. فقديماً قالوا: (الصيت ولا الغنى)، وإنما لأنني اكتشفتُ أن الأغنياء تأتيهم البنوك ولا يذهبون إليها.. ووفقاً لهذا الاكتشاف الخطير يُصبح معظم أولئك (الملطوعين) أمام كاونترانتها هم من جماعة فيكتور هوغو أعني (البؤساء) الذين يقفون مُذعنين في تلك الطوابير الطويلة لسداد أقساطها دون أن يجرؤ أي منهم على فتح فمه لا بولد ولا ببنت شفة احتجاجاً على قلة موظفي الاستقبال أو الصرافين أو حتى وجود مقاعد كافية لانتظار المراجعين.. لأنهم مدينون للبنك بتلك القروض التي تُشبه الشرك.. والتي تُقدمها هذه البنوك بطريقة تُسيل اللعاب في بداية الأمر.. لتستردها فيما بعد بطريقة الذبح بسكين بصل مثلومة!!. (وويلك ياللي تعادينا يا ويلك ويل).. لأنهم يُمسكون بقوت الناس إذ لا منجا ولا ملجأ، وهناك تعريف للبنك بأنه هو ذلك الذي يُقرضك مظلة في الصحو ثم يستردها منك بعد انهمار المطر.. لكن هذا كله لا يهم لأن قضية معظم الناس مع البنوك المحلية ليست قضية بلل ولا مطر ولا مظلات ولا (دياولو) حسب أشقائنا المصريين.. إنما القضية هي أن هذه البنوك لا تخجل من أن تجعلنا نقرأ من حين لآخر إعلاناتها الصحفية عن أرباحها الربع سنوية.. فنُصاب بالتأتأة والتأتأة أمام هول الأرقام الفلكية التي تجنيها من جيوب عباد الله.. وقد تفشل في تهجئة تلك الأرقام لأنها خارج ما تعلمناه في حصص الحساب سابقاً والرياضيات حديثاً بعد أن تجاوزت خانة الآحاد والعشرات والمئات والملايين إلى المليارات، في الوقت الذي تتكرش فيه ميزانياتها أكثر فأكثر بالاستفادة من عائدات الفوائد على الحسابات الجارية والتي يتعفف حتى الجياع عن السؤال عنها تبرئة للذمة لتختطفها هي، دون أن تُقدّم مقابلها أي خدمة ولو صغيرة لهؤلاء الذين تأخذها من أموالهم (على البارد المستريح) كأن تزيد في مساحة التوظيف مثلاً.. أو تُساهم في مشاريع إنمائية هنا أو هناك.

ليس هذا فحسب هو كل ما يفقع المرارة.. فبعد أن بادرت هذه البنوك مشكورة بسعودة موظفيها والذين لا يتجاوز عددهم في الفرع الواحد أصابع الكف الواحدة رغم ضغط العمل.. خاصة بعد تطبيق أنظمة الصرف السريع لموظفي الدولة والقطاع الخاص، وبعدما أصبحت معظم المعاملات المالية تتم عن طريق البنوك.. وحتى مخالفات المرور.. ورسوم الجوازات والإقامة وخلافها.. أقول: إن هذه السعودة قد زادت الحشف في بعض هذه البنوك سوء كيلة.. فعلى سبيل المثال قد تجد أن هذا البنك أو ذاك قد فتح ثلاثة شبابيك أو أربعة للصرافين السعوديين طبعاً.. لكنك قطعاً لن تحلم مجرد الحلم بأن هذه الشبابيك ستعمل مجتمعة!!.. إذ لا بد أن تكتشف أن اثنين منها فقط يعملان.. في حين ذهب موظف الشباك الثالث ليتبادل أطراف الحديث مع زميله وهو يُعلق بين إصبعيه سيجارة من المارلبورو.. ينفث دخانها في وجوه مراجعيه وهو يحتسي فنجاناً من الشاي.. أما الكاونتر الرابع فلابد أن الموظف الموكل إليه أمره قد ذهب ليُفطر بعيداً عن الأعين أو ربما لـ (ليسحب كم نفس من حجر المعسّل) في المقهى المجاور.. وعلى أولئك الذين يُقاومون نعاسهم متكئين على الانتظار فوق كرسي مكسور أو على أحد الأعمدة الملطخة بحبر (الاسطمبه) أن ينتظروا الفرج من صاحب الفرج.. وهنا يجب أن أنصحكم بألا تأخذكم العزة بالإثم لتحتجوا أو تستنكروا أو تشجبوا.. فقد حدث أن تعرّض أحد أصدقائي لما جعله يخرج من طوره وهو يقف في طابور ليُسدّد مخالفات مرورية عن ابنه وكيف كان يتجرّع رائحة إبط أحد العمال أمامه والتي وصفها بأنها (تجدع الطير من السما) لكنه وحفظاً للوقت كان يُصرّ على التشبّث بدوره.. حينما وقف موظف الشباك ليرد على هاتفه النقال لما يزيد على النصف ساعة.. ضارباً بهؤلاء الأوباش عرض الحائط.. فما كان من صاحبي إلا أن أخذته الغيرة والحمية فأزبد وأرعد وهدّد بسحب حسابه من البنك مما تسبب في إحداث بلبلة لبعض الوقت في كافة أرجاء البنك لكنها كانت كركود الصيف.. حيث خرج أولئك الذين لا يخرجون إلا للشديد القوي من الغرف المزججة.. لكن الأمر ما لبث أن تحوّل إلى بعض ابتسامات مشوبة بشيء من التهكم منذ أن تسارعت الشاشة تلو الأخرى لاستعراض رصيده الذي بقي في خانة المئات رغم أن الشهر الهجري لم يُغادر الساحة بعد!!.

fsalman@alriyadh.com

مواجهة موضوعية مع طروحات هيكل

د. عبداللطيف بن محمد الحميد *

إذن أين منطلق المصالح المشتركة والتفاعل المحلي مع القوى الكبرى في المنطقة والتفاوض وفق مقتضيات المرحلة؟ لماذا لم يقم الاستاذ هيكل بتحليل طروحاته وفق هذه المعايير..

■ توطئة:

لم تأل صحافتنا السعودية جهداً في القيام بواجب الرد الصحفي على طروحات الأستاذ محمد حسنين هيكل غير الموضوعية في يوليو ٢٠٠٥ عبر فخ قناة الجزيرة الفضائية التي تملك أجندة خاصة خارج الحدود فوق مستوى الجارة الشقيقة قطر.

ولأن الأستاذ الشهير المصنف عربياً بأنه من أعمدة النكسة السبعة قد تجاوز مجاله الصحفي والسياسي الى ادعاء امتلاك زمام تفسير التاريخ دون غيره وادعاء حيازة الوثائق دون غيره، وادعاء الرؤية الشمولية البانورامية في تحليل الأحداث الدولية وانعكاساتها على المنطقة العربية دون غيره.. أقول ان هذه الأمور تستدعي مشاركة مؤرخينا السعوديين والعرب في مواجهة هذه الادعاءات بموضوعية وتأنٍ بعيداً عن التهويش والتجاذب السلبي.

الأستاذ محمد حسنين هيكل:

لا شك أن الجيل الجديد من شبابنا العربي الذي لم يحمل عقدة (صوت العرب) أو (هنا موسكو) ربما فاجأه خروج عملاق عجوز لا يكاد يعرف عنه شيئاً بدعوى تقديم تجربة نصف قرن من صفحات تاريخنا العربي وان بصورة قاتمة انتقائية انهزامية.. من هذا المنطلق فالتعريف بالأستاذ هيكل ضرورة للجيل المعاصر.

ولد الأستاذ هيكل بالقاهرة حسب افادته هو في عام ١٩٢٣م وتلقى تعليمه بها.. وفي سن العشرين التحق بجريدة الايجيبشيان جازيت محرراً في قسم الحوادث وشارك في تغطية بعض معارك الحرب العالمية الثانية، ثم عين محرراً بمجلة آخر ساعة، فأخبار اليوم مراسلاً متجولاً حول العالم. وقبيل الثورة أصبح رئيساً لتحرير آخر ساعة ومديراً لتحرير أخبار اليوم في الوقت نفسه.

وكانت المرحلة الذهبية لهيكل هي فترة رئاسته لجريدة الاهرام لمدة سبعة عشر عاماً.

وفي عام ١٩٧٠ عين وزيراً للإرشاد القومي واستقال أخيراً في عهد الرئيس السادات اثر خلافه معه بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣م. ومنذ ذلك الحين تفرغ للكتابة في الصحف العربية والعالمية ونشر مؤلفاته السياسية والصحفية التي وصل عددها الى ثمانية وثلاثين كتاباً.

عاصر هيكل إذن ثلاثة عهود متناقضة من تاريخ مصر (الملك فاروق وعبدالناصر والسادات) وعهود الانحطاط العربي عبر هزائم ثمانية وأربعين وسبعة وستين وصراع المعسكرين والحرب الباردة.. فتشكلت شخصية الأستاذ من تركيبة تناقضات المرحلة صحفياً بارعاً وسياسياً براغماتياً ومؤرخاً انتقائياً غير موضوعي.

ثنائية الفرعون والكاهن:

كتب الأستاذ صلاح عيسى بعنوان (هيكل.. تراجيديا الفرعون والكاهن) قائلاً إن مؤرخي الأجيال القادمة سيحتارون إذا ما أرادوا تقييم الأدوار التي لعبها هيكل على مسرح الصحافة والسياسة المصرية والعربية وسيضلون الطريق اليه بين جبال من التفاصيل وتلال الأكاذيب.

كان عبدالله النديم كاهن أحمد عرابي وكان بسيطاً كزعيمه ومخلصاً وسيئ الحظ مثله!

وكان عباس العقاد الكاتب الجبار للزعيم الجبار سعد زغلول:

وكان محمد التابعي هو صحفي مصطفى النحاس.. وهيكل كما قال هو نفسه آخر تلامذة محمد التابعي قضى معه ثم مع أولاد أمين سنوات ظل يراقب بذكائه المشع قوانين لعبة الفرعون والكاهن.

تربع هيكل على عرش الكهانة عندما هوى قمر الزمن الماضي مات الملك عاش الضباط الأحرار، وبينهم كان هيكل المدني أصغرهم سناً وأكثرهم ذكاء وطموحاً وأبعدهم عن شبهات هؤلاء الضباط الشبان. وباعتقال مصطفى وعلي أمين سقطت معظم الحواجز التي كانت تقف بين هيكل وعرش الكهانة الذي أصبح سنة ١٩٥٢ خالياً.

سخّر هيكل كل مواهبه في خدمة عبدالناصر - حيث الكل في واحد - يصوغ له الخطب والرسائل ويؤلف له كتاباً في الفلسفة وميثاقاً في العمل الوطني، ويقرأ عليه الكتب وبرقيات وكالات الأنباء. ويلخص له الصحف وأخبار الإذاعات ويخرج له قراراته الكبرى ويكتب عنه وله كل أسبوع ترانيم يوم الجمعة، وينحت له تلك الكلمات الاسفنجية التي تمتص دموع الكوارث بتسميات (النكسة) و(نحن نملك أكبر قوة ضاربة ورادعة في الشرق الأوسط).

* وجاءت قمة كهانة هيكل عندما خرج بنظرية تقول إن عبدالناصر لم يكن بحاجة إلى حزب إذ إن حزبه في أجهزة إعلامه القوية.. فالشعوب في رأيه خلقت لتسمع وتقرأ والكاهن هو حزب الزعيم أو هو شعب الفرعون.. أما مصطلحات مثل: (الشعب المعلم) و(الشعب القائد) و(إرادة شعبنا) فلم تكن سوى دليل على تفوق الكاهن في كتابة الإنشاء.

وعندما مات عبدالناصر وخلا المعبد من الفرعون قبل الأوان وكان هيكل قد أدمن الكهانة فقد راهن على أنور السادات، ولكنه لم يهنأ بالقرب من السادات لينتقل خطوة بعد خطوة إلى صف المعارضين للسادات.

ادعاء حيازة الوثائق:

في حلقات قناة الجزيرة (مع هيكل) المتلفزة في يوليو ٢٠٠٥ يقول هيكل في مواضع مختلفة في سياق هجومه المباشر وغير المباشر على الملكيات العربية (السعودية والهاشمية وأسرة محمد علي في مصر): (أنا أظن أن احنا قرأنا التاريخ كثير قوي بعيداً عن وثائقه) (.. لكن وثائق نابليون والفترة المحيطة بها كلها أنا باعتقد إنها كلها موجودة في حوزتي) (أنا عندي هنا أوراق كرومر.. أنا في لندن ماشي يوم من الأيام في شارع بوم ستريت وفيه مزاد على أوراق كرومر.. ودخلت لقيت الثمن معقول اشتريتها).

وأقول هنا نحن معشر المؤرخين نتفق مع هيكل في ضرورة الاعتماد على الوثائق وهذا من أبجديات عمل المتخصصين الأكاديميين في مجال التاريخ الذين ليس من بينهم هيكل بالطبع.

وليس الأمر فيما يتعلق بالوثائق البريطانية وغيرها فرنسية وألمانية وهولندية وبرتغالية وتركية (عثمانية) هي ما بحوزة هيكل من أربعة مجلدات في كلية سانت أنتوني أو ما اشتراه من وثائق وهو يعبر السبيل في أزقة لندن أو ما جمعته الأهرام طيلة تاريخها.. أقول إن دور الأرشيفات البريطانية على سبيل المثال تحوي ما لا يمكن إحصاؤه من المحفوظات والسجلات الوثائقية وتوجد في مقرين رسميين مستقلين لم يذكرهما هيكل لأنه لم تطأ قدماه أياً منهما وهما (دار السجلات العامة - Public Records Office) و(سجلات وزارة الهند - India Office Records) ثم ما تنشره وزارة الخارجية البريطانية من سلاسل وثائقية أو ما ينشر من وثائق وزارة الهند أو مجموعات (طبعات الأرشيف Archive Editions) ومعظم الأكاديميين السعوديين ومن بينهم كاتب هذا المقال قد أتاحت لهم الحكومة السعودية مشكورة فرصة الاستفادة منها بفضل بعثات الدراسات العليا في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية.. وأذكر أن أول زيارة قمت بها لدار السجلات العامة في لندن كان في عام ١٩٨١ وسبقني اليها ايضاً الدكتور محمد آل زلفة وغيره من الزملاء والباحثين.

وتكاد تكون المملكة العربية السعودية بجامعاتها ومؤسساتها أكبر دولة عربية ترجمت ونشرت الوثائق البريطانية والفرنسية والأمريكية والتركية ويكفي فخراً ما قامت به دار الدائرة للنشر والتوثيق من اصدار السلسلة الوثائقية (الملك عبدالعزيز سيرته وفترة حكمه في الوثائق الأجنبية) في عشرات المجلدات برعاية كريمة من سمو الأمير سلطان بن عبدالعزيز وما تحويه دارة الملك عبدالعزيز ومكتبة الملك فهد الوطنية من أرشيفات وثائقية بمؤازرة ورعاية من سمو الأمير سلمان بن عبدالعزيز وأهم من ذلك أن المملكة عضو فاعل في مجلس الوثائق الدولي وقد شرفت شخصياً بتمثيل دارة الملك عبدالعزيز قبل سنوات بحضور المؤتمر العالمي لمجلس الوثائق الدولي في بكين بتكليف من الدكتور فهد السماري أمين عام الدارة.. وهناك مجموعات وثائقية مهمة نشرت بتمويل من رجال أعمال سعوديين ومن باحثين متخصصين.

فأين قطرات هيكل الوثائقية من بحر الوثائق العالمية.

القراءة غير الموضوعية للوثائق

ثم يأتي بعد ادعاء حيازة الوثائق القراءة المنحازة التدليسية غير الموضوعية للأستاذ هيكل مع الجهل بالتاريخ السعودي.. وأقدم هنا نماذج من أخطاء هيكل في برنامج قناة الجزيرة عن (دور الأسر الثلاث الحاكمة تاريخياً):

١) يقول هيكل (والأسرة المالكة السعودية بدت لأول مرة في التحالف بين الأمير سعود الكبير وبين محمد بن عبدالوهاب).

والخطأ هنا من جهتين الأول قوله بين الأمير سعود الكبير والصحيح الإمام محمد بن سعود في عام ١٧٤٤م. لأن سعود الكبير ت ١٨١٣م هو الإمام سعود بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود الذي غطى حكمه معظم ارجاء الجزيرة العربية وجبى الزكاة من بادية الشام الى عمان على بحر العرب.

والخطأ الثاني والذي أعزوه لجهل أستاذنا هيكل هو أن امارة آل سعود قد بدأت في الدرعية منذ عام ٨٥٠هـ/١٤٤٦م. وأن عام ١١٥٧/١٧٤٤م هو عام معاهدة الدرعية بين الإمام محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبدالوهاب التي أعطت للإمارة زخماً جديداً جعلها تسود معظم أنحاء الجزيرة العربية والدول الاستعمارية تراقب عن كثب نموها الهائل وامتدادها الكاسح فتسعى هذه الدول عن طريق رحالتها ومقيميها في المنطقة لتقصي هذه الظاهرة الذاتية الدفع.

وبلغة الوثائق التي يتحدث بها أستاذنا هيكل نحيله إلى وثيقة عثمانية مؤرخة في ٢٨ رجب ٩٨١هـ/ ١٥٧٢م اكتشفها باحث سعودي شاب هو الأستاذ راشد بن عساكر في الأرشيف العثماني تشير إلى شكر الدولة العثمانية ممثلة في واليها على الاحساء لجهود أمير الدرعية ابراهيم بن موسى (أحد أجداد آل سعود) وبعض الأمراء والمجاورين في تأمين طريق الحجاج عبر نجد (الوثيقة محفوظة في دائرة الأرشيف العثماني) التابع لرئاسة مجلس الوزراء باستانبول مهمة دفتري ٢٣، ص١٦٣، رقم الوثيقة ٣٤١.

٢) يقول هيكل (ماحدش عنده وثائق كافية ولا مراجع كافية عن الدور اللي لعبته حكومة الهند في الدولة السعودية.. في قيام الدولة السعودية الأولى لكن نستطيع ان نتصور انه لما عقدت أول معاهدة سنة ١٨٦٠ بين حكومة الهند وبين الأمير سعود.. بالأمير فيصل بن سعود..).

وأقول أولاً يقصد هيكل بقوله (الأمير سعود.. بالأمير فيصل بن سعود) الإمام فيصل بن تركي بن عبدالله الذي زار الرياض في عهده معتمد بريطانيا في الخليج الكولونيل بلي في مارس ١٨٦٥م وليس ١٨٦٠ كما يقول هيكل.

وثانياً فيما يتعلق بعلاقات السعوديين مع الدول الكبرى ومنها بريطانيا وفرنسا والدولة العثمانية ذاتها ومحاولات هيكل التهويشية ازاء موضوع العلاقة مع بريطانيا.. اقول بأنه لا يوجد كيان سياسي في العالم منذ فجر التاريخ يعيش منكفياً على نفسه مكتفياً بموارده وانما لابد من التفاعل المحلي والدولي.. فكيف بموقع استراتيجي عالمي كالبلاد السعودية التي تضم معظم جزيرة العرب.. فوجود علاقة بين السعوديين وبين الدول الكبرى السائدة دليل على قوة الكيان لا تبعيته.

ثم إن الأمر ليس كما يقول الأستاذ هيكل (ماحدش عنده وثائق أو مراجع كافية عن الدور اللي لعبته حكومة الهند في قيام الدولة السعودية).

فهنا نرى محاولات إيهام المشاهد العربي بأن ثمة دوراً ما لبريطانيا في قيام الدولة وهل تجرؤ أي دولة كبرى آنذاك على اختراق وسط الجزيرة العربية مباشرة أو غير مباشرة؟

ولذلك فإن الوثائق والمراجع وهي كافية لدى المؤرخين الأكاديميين وليس كما يزعم الأستاذ تقول ان هناك أحداثاً في المنطقة أدت إلى اتصال بريطانيا بالدولة السعودية الأولى مثل التحالف القائم آنذاك بين السعوديين والقواسم الذين قاموا بالجهاد البحري ضد بريطانيا وبعض قوى الساحل الأمر الذي أدى إلى وقوف بريطانيا ضد القواسم والسعوديين مع حذرها من التورط في العداء المباشر مع السعوديين لأن مصالح شركة الهند الشرقية البريطانية في مناطق الساحل لا المناطق الداخلية في جزيرة العرب.

وعلى هذا الأساس أرسلت بريطانيا المستر رينود أحد مساعدي الوكيل البريطاني عام ١٢١٤هـ/ ١٧٩٩م إلى الدرعية كرئيس للبعثة الرسمية إلى العاصمة السعودية حيث أجرى محادثات مع الإمام السعودي عبدالعزيز بن محمد تركزت على تأمين سلامة بريد شركة الهند الشرقية البريطانية من البصرة إلى حلب عبر الطريق الصحراوي الذي تقطنه قبائل سعودية.

ولعل الأمر اللافت للنظر في هذا السياق ان الجانب البريطاني كان دائماً هو البادئ في عملية الاتصالات مع الجانب السعودي.. وتكرر ذلك في التاريخ السعودي بمراحله الثلاث.

وقد اتضح الموقف البريطاني من السعوديين إثر سقوط الدرعية حين أرسلت بريطانيا الكابتن فورستر سادلير إلى الدرعية ليهنئ ابراهيم باشا على انتصاره.

وفي سياق علاقات الدولة السعودية الخارجية تشير بعض المصادر إلى أن بعثة فرنسية برئاسة دي لاسكارس وصلت إلى الدرعية في عهد الإمام سعود الكبير ١٢٢٦ هـ/ ١٨١١م وتباحث معه حول قيام علاقات بين البلدين.

كما تذكر الوثائق العثمانية ومنها الوثيقة (رقم ٣٨٤١ وتاريخ ٤ صفر ١٢١٣هـ الموجودة في خطي همايون بأرشيف مجلس الوزراء العثماني باستانبول) ان الإمام عبدالعزيز بن محمد أرسل مندوباً إلى استانبول محملاً بالهدايا ورسالة إلى السلطان العثماني.

* إساءة هيكل لتاريخ الملك عبدالعزيز وأبنائه:

من الإنصاف في حق الأستاذ هيكل أن يشكر له الباحثون موضوعيته ازاء الدور الريادي للملك عبدالعزيز في بلاده من خلال ما سطره في تقديمه لكتاب معالي الشيخ عبدالعزيز التويجري بعنوان (لسراة الليل هتف الصباح) وهو الكتاب الذي حوى عشرات الوثائق المحلية وأجاد والدنا الشيخ التويجري في عرضها وتحليلها سياسياً وتاريخياً.

وهنا نختار مقاطع مما قاله الأستاذ هيكل في تقديمه لهذا الكتاب: رحت أجول ببصري أو بفكري حول الأفق متذكراً وملاحظاً:

١) ان الملك عبدالعزيز آل سعود أسس دولة وأنشأ نظاماً، وتلك مهمة تعهد بها المقادير لرجال لا يتكررون بسهولة، ذلك ان تأسيس الدول وانشاء النظم يحتاج أول ما يحتاج إلى إرادة تستطيع في لحظة استثنائية أن تحرك التفاعل الكيميائي الخلاق بين الجغرافيا والتاريخ ويفجر طاقة فعل هائلة.

٢) يتصل بذلك مباشرة انه في تأسيس الدول وانشاء النظم فإن مشروعية الفعل تتأتى من ضرورته الطبيعية والإنسانية، ومن لزومه للأمن والعمران في موقع معين من الأرض، وقد كان القلب في شبه الجزيرة العربية في حاجة إلى دولة وإلى نظام بعد قرون طويلة حكم فيها الإهمال وسادت الفوضى، خصوصاً والموقع المعني موطن الأماكن الإسلامية المقدسة، ثم هو الأرض المبسوطة وحولها البحار، وطرق التجارة بين الشرق والغرب، وأمام هذه الخريطة المثقلة بالخطوط والألوان والعلامات فإن مشروعية الفعل الذي قام به الملك عبدالعزيز تكتسب لنفسها أرضية وقاعدة، بل ونوعاً من الحتمية التاريخية.

٢) إضافة إلى ذلك فإن شرعية الدول والنظم بعد كل ظروف التأسيس والنشأة تتحقق من استجابتها للدواعي المطلوبة للموقع الذي تقوم فيه وللناس الذين يعيشون على أرضه ومن حوله.. وربما أن جزءاً كبيراً من شرعية الدور الذي قام به الملك عبدالعزيز هو انحيازه التلقائي والفطري في بعض الأحيان لقضايا الأمة، وفي مقدمتها قضية فلسطين.. وهذا الانحياز التلقائي والفطري للملك عبدالعزيز لقضية فلسطين حقيقة تشهد به المواقف والوقائع وتسجله الوثائق الدولية بما لا يترك سبباً لشك.

والحاصل ان الدور الذي قام به الملك عبدالعزيز آل سعود حزمة مربوطة تكاد أن تكون دائرة شبه كاملة محددة بذاتها، واضحة في حدودها ومعالمها، بناء دولة واقامة نظام - ثم قيادة الدولة والنظام إلى الإقليم والأمة - ثم وضع الدولة والنظام على طريق العصر.

وهنا من حقنا التساؤل لماذا لا يتناغم هذا التحليل الموضوعي للأستاذ هيكل عن الملك عبدالعزيز مع ما قاله الأستاذ نفسه في قناة الجزيرة في يوليو ٢٠٠٥م عن التاريخ السعودي فهل ألقت سياسات قناة الجزيرة بظلالها على فكر الأستاذ وهو أكبر بكثير أن يفعل به ذلك.. أم تغيرت القناعات أم ماذا؟.

ومن شواهد انتفاء الموضوعية في طرح هيكل في الجزيرة ازاء تجربة الملك عبدالعزيز ما يلي:

* محاولته الربط التعسفي بين واقع الملكيات الثلاث السائدة (السعودية والهاشمية والخديوية) في علاقتها بصراع الامبراطوريات وفي الجدران الوهمية الحاكمة للحكام.

والواقع ان لكل أسرة مالكة آنذاك فروقاً في مسيرتها لا يجعل تاريخها قابلاً للتحليل في سلة واحدة.. فأسرة محمد علي ارتبط وضعها بعلاقتها العضوية مع الدولة العثمانية وبمقررات مؤتمر لندن ١٨٤٠م الذي حدد وراثة الحكم لأسرة محمد علي وفي تحجيم وتقليص نفوذ الباشا إلى نقطة الصفر التي بدأ منها في مصر بدلاً من أطماعه في حكم الشام واليونان والسودان والجزيرة العربية.

في حين أن الأشراف آنذاك كانوا ولاة للدولة العثمانية إلى حين قيام الشريف حسين بن علي بثورته ضد العثمانيين في عام ١٩١٦م بتحالف مباشر مع بريطانيا.

وكل ذلك يختلف تماماً عن مسيرة الملك عبدالعزيز الذي تتكئ على إرث أسرته الضارب في القدم في قلب الجزيرة العربية، وعلى حاجة بريطانيا إلى استقرار الأوضاع في سواحل الخليج.

فهل تعاملت بريطانيا وغيرها من الدول الكبرى مع السعوديين بنفس السياسات التي اتبعتها مع باشا مصر والأشراف في الحجاز من قبل العثمانيين الجواب لا بالطبع وان كانت تحليلات هيكل تسوقها تعسفاً على قدم المساواة.. وأما إذا كان المقصود أوضاع ما بعد الحرب العالمية الأولى التي انتهت بانهيار الدولة العثمانية واحتلال مصر واستقلال الشريف الحسين وابنائه فإن ذلك لا يقتضي أيضاً ربط مصير هذه الكيانات السياسية الجديدة بأحداث وسياقات التاريخ السعودي.

* فمثلاً مقولة الجدران الوهمية الحاكمة للحكام التي أطلقها هيكل في برنامجه وهي أن كل واحد من هؤلاء الملوك كان شايف نفسه بشكل، وان كل واحد طامع يحل محل الخلافة ويقصد «الملك فؤاد والملك الحسين بن علي والملك عبدالعزيز» وقوله (... الملك عبدالعزيز عنده حاجة غريبة قوى يشرحها الكاتب العظيم اللبناني أمين الريحاني لما راح.. لما كتب كتابه ملوك العرب وراح شاف كل الملوك، الملك عبدالعزيز وهو بيكلمه قال له ايه؟ انت عاوز الخلافة؟ قال له نحن لا نطلبها لكن يسعوا إلينا فنقبلها وحتى فيه أمين الريحاني لفت نظره انه الملك عبدالعزيز قبل ما يتكلم يقول حنا العرب فهو كان بيقول والله اخواننا الهاشميين دول في الحجاز دول اتراك ولا لهم دعوة بالعرب نصفهم اتراك ملهمش دعوة بالعرب، الملك فؤاد على عيني وراسي وفوق تاجنا وراسنا وكل اللي انتووا عاوزينه لكنه ألباني وتركي..).

وأقول أولاً قد رجعت إلى كتاب ملوك العرب للريحاني فلم أجد فيه البتة كل ما قاله الأستاذ بل على العكس من ذلك أشار الريحاني في كتابه الآخر (تاريخ نجد الحديث وسيرة عبدالعزيز آل سعود) ص٢٣٠ إلى قول الملك عبدالعزيز (لا طمع لي بالخلافة واني لا أرى من هو أجدر بها من الشريف حسين).

نعم كان الملك عبدالعزيز يعلم ان الخلافة قد حوربت في عاصمتها استانبول بيد أبنائها ومؤازرة أعدائها الأوروبيين وان الحرب العالمية الأولى قد أجهزت عليها.. فأنى لملك عربي أن يطلبها أو يتبناها آنذاك.

وأما الجدران الأربعة (حوالين كل واحد فيهم) أي الملوك الثلاثة فؤاد والحسين وعبدالعزيز وهي بزعمه (القوة الأجنبية) و(مشكلة مع شعبه) و(المشكلة مع الزعماء المتنافسين) و(الخلافات بين الحاكم وأبنائه).

فأقول رداً على هيكل ما قاله المؤرخ الأديب أمين الريحاني في كتابه ملوك العرب ص ٩٢٧: (رعية الملك حسين تطيعه وتخافه، ورعية ابن سعود تطيعه وتحبه، ورعية الإمام يحيى تطيعه دون حب ودون خوف، ورعية الملك فيصل في العراق لا تخاف ولا تطيع إلا مكرهة).

وعندما زعم هيكل خلاف الملك فؤاد مع فروع عائلته وخلاف الشريف مع أبنائه.. ابتكر طريقة فجة للاستدلال بوثيقة انتزعها من كتاب الشيخ التويجري المذكور آنفاً دون الإشارة إلى ذلك وإنما حاول التدليس بأنها ضمن مجموعاته الوثائقية الخاصة.. واستدل بهذه الوثيقة على وجود خلاف بين الملك عبدالعزيز وأبنائه وراح يدندن بخلاف نص الوثيقة وروحها الايجابية التي توحي بدلالات ايجابية بعكس ما يقوله الأستاذ.

وأسوق إلى القارئ الكريم نص الوثيقة وتعليق الشيخ التويجري عليها وجواب الأبناء البررة لأبيهم المعلم المربي:

(من عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل إلى الأبناء سعود وفيصل ومحمد وخالد سلمهم الله تعالى بعد ذلك من طرف أربعة هالامور التي سأذكرها لكم ادنى وهي:

أولا: تكونوا يدا واحدة فيما بينكم صغيركم يوقر ويمتثل امر كبيركم.

وكبيركم يعطف على صغيركم، كما أن الصغير إذا رأى أمرا ما يجوز من الكبير أن يبين له ذلك ويقول الأمر هذا لا يجوز منك، وعلى الكبير الاصغاء لأخيه الصغير كما هو لازم عليه مناصحة أخيه الصغير.

ثانيا: ان كل شيء أمر به او تدبيرا ادبره تنفذوه ولا تعترضوا من وكلت أمره.

ثالثاً: كل ما سألتكم عنه أو لزم لكم رفعه إلى تصدقونني فيه باي حال تكون.

رابعا: ان لا تعترضوا أمور ماليتي، ولا قريبها ولا بعيدها، في قليل ولا كثير.

هذه الأمور افهموها واحرصوا على تنفيذ موجبها وكل شيء يصير منكم مخالفا لشيء منها أجزموا انه سيكون سببا لسخطي عليكم يكون ذلك معلوما).

٢٠ ربيع الآخر ١٣٤٩هـ (١٩٣٠م).

تعليق الشيخ التويجري:

هذه الرسالة كتبها الملك عبدالعزيز لأكبر أولاده سنا في ذلك الوقت، ماذا تدل عليه وتشير اليه؟ انها رسالة عليها هيبة الأب ورجل الدولة، وفيها وعيه الحكيم لما ينتج عن تدخل الولد في شؤون الدولة بسلطان أبيه.

(١) إنه بهذه الرسالة يضع لهم حدا ويقيهم شر التنافس او القطيع